أثر القرآن
في تحرير الفكر الانساني

قال الاستاذ محمد فريد وجدي :

أول ما وجد الانسان على الارض كان جاهلا كل الجهل وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الأمم السابقة على التاريخ فلم يشاهد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يناسب الحالة العقلية التي كانوا عليها. ولا تزال توجد في الارض قبائل متوغلة في التوحش تعطينا مثلا محسوساً على ما كان عليه الانسان في اول وجوده ومما هو محقق أن الخالق سبحانه وتعالى لم يحرم الانسان وهو في ذلك الدرك الاسفل من وجوده من رسل يهدونه الى الحق بالقدر الذي يطيقه تعقله . ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لاوهامه فيؤله قوى الطبيعة ، أو يتخيل وراء ظواهرها روحاً او ارواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه ، وتقذفه بالشر متى سخطت عليه ، فكان يستجلب رضاءها عليه بما تزينه له عقليته

الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها . ولا شك انه كان يصدر في كل ذلك عن رجال نحلوا انفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة فكان يدين بما يوسوسون له به غير طالب على ما يقولون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم فحسب ، ولكن لانه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ، فكل شيء كان عنده صحيحاً مادام يصدر عن المهيمنين على ديانته .

فلما حصل للانسان بعض العلم بالوجود الذي يعيش فيه ، وأخذت قواه العقلية تشعره شعوراً ساذجاً بان من الامور ماهو حق ومنها ماهو باطل ، ازداد تعويلا على قادته ، وتمسكا بما يفضون به اليه ، وتسليما منه بان الحق لا يعدو ما يؤاتونه اياه على اية حال .

انتقل الانسان درجة بل درجات في باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه الادبية ، واستعدت للقيام بحصتها من حياته العقلية فلم يؤثر هذا في خضوعه لأوليائه ، لأنهم بما انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه الى التطور فيوفونه حاجته من الغذاء

العقلي فكان يضطر للانقياد لهم ، اذ يصادف لديهم كلما حفزته الحاجة الى المزيد منه فيظل اسيراً في قبضتهم .

تتابعت القرون والاجيال ، والناس جميعاً على هذه الحال ، حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين احضانها رجال وقر في أنفسهم ان من حق عقولهم عليهم ان يناقشوا رجال الدين فيما يدلون به الى الناس من عقائد ، فكان جزاؤهم القتل ، وأكبر من ذهب منهم ضحية لهذه التهمة الفيلسوف سقراط عمدة الفلسفة اليونانية .

ولكن ما لبث هذا الحجر على الفكر أن خفت وطأته ، فتمكن فلاسفة كثيرون من الافضاء بمذاهبهم الى الناس ، وفي بعضها ما يخالف عقائد عامتهم ، بل منها ما يفضي الى المادية الباحتة .

ولكن هذا العهد لم يدم طويلا ، فانه لما عمت الديانة المسيحية أوربا أصبح لحفظتها من السلطان ونفاذ الكلمة ما ليس للملوك المتوجين ، فوضعوا حدوداً للنظر لايسمح لاحد بتعديها ، فوقفت حركة الفكر أكثر من الف سنة لم ينبغ في

أثنائها على ما يقول المؤرخون عالم واحد في أي فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الاوائل مكدسة في المكتبات ترعى فيها الحشرات .

فكان العالم لا يخلو في اثناء تلك القرون الراكدة من نبوغ عقول نيرة تبحث في بعض الشؤون الكونية ، وتأتي بما يعده القائمون بالامور الدينية زيغاً ، فكان هؤلاء المفكرون يحاسبون على ما أتوا به حساباً عسيراً ، فيستتابون ويعزرون إن كانت جريمتهم هينة ، فان عادوا لمثل ما أخذ عليهم فجزاؤهم كان القتل على أبشع حالة .

هذه الشدة المتناهية في القسوة لم تمنع العقول القوية من الظهور آونة فآونة ، فكان حفظة العقائد يلتقطون أصحابها واحداً واحداً ويخمدون انفاسهم ، حتى لا تسري عدواهم لسواهم . ظلت الحال جارية على هذا النحو حتى بلغ عدد ضحايا الفكر الحر أكثر من ثلثمائة ألف ، أحرقوا بالنار ، أو ألقوا في البحار ، او ماتوا وخزاً بالسفافيد المحماة الخ

ومن عجب انه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كثر المترسمون

لخطواتهم ، وكلما امعن رجال الدين في عنادهم ، استبسل رجال الفكر في جهادهم ، وتيقظ الناس من سباتهم ، وبعد ان كان النزاع محصوراً بين رجال الدين ورجال العلم ، تعداهم الى رجال الدين انفسهم ، وما هي إلا فترة حتى انصدعت وحدتهم ، فاعلن جمهور كبير منهم عزلتهم ، مؤسسين مذهباً جديداً للمسيحية باسم البرتستانية ، فيها تسامح كبير إزاء رجال العلم ، ومجال فسيح للفكر الحر والرأي المستقل ، وكان ذلك في القرن السادس عشر ، اي بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة

الناظر فى هذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات ادبية محلية ، والحقيقة انها تتصل بالنهضة التي احدثها القرآن في الشرق اتصالا وثيقاً ، فان المسلمين اتصلوا باوربا من جهة غربها منذ اواخر القرن الثامن الميلادي بفتحهم للاندلس ، فاسسوا فيها دوراً للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأي على ما يقضي به الدستور القرآني ، فتأدوا الى مدى بعيد من المعارف والفنون ، وصارت جامعات قرطبة واشبيلية مثابة لطلاب العلم الغربيين فنهلوا من معينها الصافي مالا

يصلون الى مثله في بلادهم ، ومرنوا على الاسلوب الذي كان يجري عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال ، فتشبعت به نفوسهم ، وارتاحت اليه عقولهم ، فلما عادوا الى بلادهم اخذوا يبثون فى مواطنيهم هذه الروح الجديدة ، فسرت فى اذكيائهم سريان النور في الظلام وفتحت امامهم آفاقاً من النظر ، ووقفتهم على مواطن الفساد من نظمهم التعليمية ، وسلطاتهم الاستبـــدادية . ومتى اشعرت النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتكميله فانتدب افراد منها للتفكير والنظر ، غير معتدين بالحدود التي امرت السلطة الدينية بعدم تعديها ، فحدث من جراء ذلك كل ماذكرناه من ذلك التاريخ هنا

اما دخول العلم الاسلامي الى اوربا من طريق الاندلس وطريق ايطاليا فأمر قد اعترف به مؤرخوهم ،واما استمدادها روح نهضتها من النهضة الاسلامية فحادث لا يمكن المراء فيه لاجماع مؤرخيها ان علوم المسلمين وآدابهم هي التي ايقظت اهلها من سباتهم ، ودفعتهم لبلوغ هذا الشأن من المدنية التي

هم عليها اليوم . ولست أحب أن أطيل الكلام بايراد الشواهد من كتب مؤرخيهم ، فانه اصبح معلوماً من الناس أجمعين .

أما الاسلوب الذي تمكن به القرآن من كسر القيود الفولاذية التي كان يرسف فيها الفكر الانساني في مدى سنين معدودة ، بعد أن لبث عليها قروناً كثيرة ، فان في بيانه عبرة للسائلين ، وآية للناس أجمعين .

انزل الله القرآن والناس على ماتعلم من عبادة الاهواء ، والجمود على تقليد الآباء ، والطاعة العمياء للزعماء ، فلو كان جرى على الاسلوب البشري في بعث هذه العقليات الخامدة ، وتنبيه هذه النفوس الهامدة ، لاستدعى ذلك قروناً واجيالا ولكنه أتى في هذا الموطن بآية سيرفعها الناس الى أعلى من مستوى إحياء الموتى ، حين يعرفون أن نقل النفوس عما ورثته طفرة ، دونه نقل الجبال الشم من أماكنها .

تصدى الاسلام لتحرير العقلية الانسانية من طريق غير مباشر ، فجاءها من الناحية التي يشتد شعورها بها ، وهي ماستؤول اليه بعد الموت ، فأفاض في ذكر العذاب الذي ستلاقيه

النفوس الكافرة الجاحدة إفاضة لم تؤثر عن سواه ، وبالغ في تهويله على ضروب تنخلع لها القلوب وترتعد منها الفرائص ، مؤكداً أن الانسان وهو في تلك الحالة لا تجـــديه شفاعة شفيع ولو كان ملكا مقرباً ، ولا قرابة قريب ولو كان رسولا مكرماً ، بل لا يجد من يتطوع لانجاده من أب أو أم أو صديق ، لاشتغال كل امريء بنفسه : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وابيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امريء منهم يؤمئذ شأن يغنيه » « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما ، يبصرونهم ، يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الارض جميعاً ثم ينجيه » « ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب » « وقالوا (أي أصحاب النار) ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا » « وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله ، قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، أولو

كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » الخ الخ .

الناظر في هذه الآيات ، وفي الكتاب عشرات من أمثالها يعجب من كثرتها ، ولكنه لو أدرك أن هذا كله تمهيد لاعظم اصلاح تم حدوثه في الارض ، وكان فاتحة لكل الاصلاحات التي تلتها من بعد ، ذلك الاصلاح الذي رمى لان يرفع عن النفوس البشرية نير العبودية للاوهام والتقاليد التي أمسكتها في الظلام أجيالا طويلة ، تبين له وجه الحكمة من الاكثار من هذه الزواجر .

ألا ترى أن النفوس متى تحققت أنه لا ينجيها من عذاب الآخرة شيء غير عملها الذاتي ، انساقت للنظر في وجه خلاصها وما دام لن ينفعها شفاعة شفيع ، ولا قرابة قريب ، ولا اتباعها لمن تتخيل فيهم الهداية ، وتتوهم منهم الوساطة ، كرهت الجمود على الموروثات ، ومقتت التقليد للآباء ، وأيقظت في نفسها خاصة النقد والتمحيص في كل مايعرض لها

من العلم ، فلم تعد اسيرة أحد فيما تعتقده وما تأخذ به ؟ وهذا هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأي الذي سعى لاقامة دولتيها العباقرة أجيالا متطاولة ، وبذلوا في تشييدها دماءهم رخيصة ، وأقامها الاسلام في سنين معدودة ؟

وقد رأيت ان الاسلام قد جاء بهذا الاصلاح للآخذين به طفرة ، مؤسساً اياه على ارسخ غرائز النفس ، وأعمق نحائزها فنشأت أمة تنظر وتفكر ، وتدعو كل فرد منها ليفكر لنفسه ، ويعمل لها ، وقد خلد رسول الله ﷺ هذا الاصل بكلمة من صميم العلم الالهي ، وهي قوله لابنتـــه : « اعملي يافاطمة فاني لا أغني عنك من الله شيئاً » .

وقد نشأ في هذه الامة عدد لايحصى من العلماء والحكماء فلم يقل واحد منهم : خذوا بما أقول لاتنظروا فيه ، بل قالوا كلهم كما قال مالك : « مامن احد إلا وهو مأخوذ منه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » يعني النبي ﷺ .